العرب
السبت 2019/08/31
السنة 42 العدد 11453

فيلسوف يذهب في رحلة مجنونة لنيل مليون دولار

«كرافت» رواية تعيد طرح سؤال: لماذا يوجد الشر في العالم؟

يمكن للرواية أن تناقش أهم القضايا وأن تنقد الواقع بسلاسة قل نظيرها، لكن أثبتت عدة تجارب روائية على غرار ميلان كونديرا قدرة هذا الجنس الأدبي على طرح أعمق وأصعب الأسئلة الفلسفية، وخلق مجالات أخرى للتساؤل، رغم أن الرواية أتت في بدايتها كإجابة بينما كان التساؤل حكرا على الشعر. الأسئلة الفلسفية الكبرى نجدها اليوم حتى في كتابات روائيين جدد مثل السويسري يوناس لوشر، الذي اختار الفلسفة طريقا لروايته الأخيرة "كرافت".

محمد الحمامصي
كاتب مصري

حصل الكاتب والروائي السويسري يوناس لوشر على جائزة "بيرنر" للأدب عن روايته الأولى "ربيع البربر" وحاز على جائزة "الكتاب الألماني" في القائمة الطويلة، عن الرواية نفسها.

وتحمل روايته الأخيرة "كرافت" الكثير من تساؤلاته وأفكاره وخبراته بدءا من عمله مدرسًا في مرحلة التعليم الأساسي ببرن، مرورا ببضع سنوات قضاها يعمل في مجال صناعة الأفلام في ألمانيا، ودراسته في مدرسة ميونيخ للفلسفة ليحصل عقب تخرجه على الدراسات العليا في الفلسفة، ثم عمله محررًا أدبيًا حرًا في الصحافة، وباحثًا في معهد العلوم والتكنولوجيا في ميونيخ، وانتهاء بتدريسه مادة "علم الأخلاق" في مدرسة الاقتصاد بالمدينة نفسها، ومحاضرته في الأدب المقارن كأستاذ زائر في جامعة ستانفورد بأميركا.

جائزة المليون دولار

تصحبنا رواية "كرافت"، التي ترجمها معتز المغاوري وصدرت أخيرا عن دار العربي للنشر، في رحلة إلى حاضر "وادي السليكون" وعبر تاريخ ألمانيا في الثمانينات، تعكس خبرة لوشر بالسينما وعلاقته بالفسلفة والاقتصاد، حيث يتجلى الأسلوب الفلسفي العميق. فهي عن بروفيسور في اللغويات اسمه "كرافت"، يعاني مشاكل كبيرة مع زوجته لا مفر منها إلا الطلاق بالإضافة إلى أزماته المادية. وقد وقعت عيناه على إعلان أرسله له صديقه "إستيفان"، البروفيسور في جامعة ستانفورد، عبر الإيميل. كان الإعلان عبارة عن مسابقة لمناقشة فكرة فلسفية تحت عنوان "رغم أن كل الأشياء كاملة، هل هناك فرصة لجعلها أفضل؟"، وأفضل إجابة تفوز بمليون دولار. فينتهز "كرافت" هذه الفرصة كي يتخلص من كل مشاكله الزوجية والمادية ويقرر الاشتراك في المسابقة.

إنها رواية اختار فيها لوشر أن يجعل "كرافت" غير اجتماعي، عميقًا، فلسفيًا، ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة، تجمع شخصيته بين السخرية والكآبة؛ كي يثير عقل القارئ، ويجعله يتعمق بفكره هو أيضًا ويصل إلى إجابة لمحور الرواية الذي هو الذات الإلهية، والكون، والخير والشر عن طريق الدراسة والبحث وليس عن طريق الاقتناع الفطري.

كتب لوشر مقدمة للترجمة العربية كشف فيها عن ولادة فكرتها والتساؤلات التي استدعتها، قال "لقد حظيت عام 2012 بفرصة قضاء تسعة أشهر كباحث زائر بجامعة 'ستانفورد' في 'وادي السليكون' بكاليفورنيا. وسرعان ما بدا لي هناك، عندما تحدثت مع أصحاب الشركات الناشئة وطلاب الدكتوراه والمبرمجين، أننا نتكلم لغات مختلفة، وأن رؤيتنا للعالم تختلف بشكل جوهري. هذا الاختلاف الجوهري يتمثل في التفاؤل غير المنقطع بالتكنولوجيا والتقدم، ذلك التفاؤل الذي اصطدمت به في الكثير من الأحاديث. كان الكثير ممّن تحدثت معهم على قناعة تامة بأن كل مشاكل البشرية الرئيسية يمكن حلها بواسطة تطبيق ذكي أو تقنية جديدة. أمّا أنا فعلى العكس منهم، دائمًا أصر على أن مشاكل البشرية الرئيسية يمكن حلها بطريقة مثالية عن طريق مؤسسات ديمقراطية. لكن أكثر ما أصابني بالحيرة أن تلك الأحاديث تحولت سريعًا إلى نوع من الأحاديث التسويقية؛ فنصف مَن تحدثت معهم بدا أن لديهم بعض الأفكار الرائعة على غرار: الفيسبوك، وغوغل، وأوبر، ويرغبون في تسويقها ولهذا جاءت أحاديثهم مليئة بالمبالغات الوقحة والتفاؤل غير المنطقي".

وأضاف أنه بسبب هذه الحيرة نشأت فكرة كتابة رواية يسافر بطلها الباحث المتشائم، والساخر، والمنهك، القادم من أوروبا –التي وصفها وزير الدفاع الأميركي السابق رامسفيلد بـ"القارة العجوز" بشيء من الاحتقار– إلى "وادي السليكون" لنشاهد ما يحدث عندما يلتقي بشباب كاليفورنيا المتفائلين.

رحلة في الزمن

أوضح لوشر "يحصل ريتشارد كرافت –هكذا أسميت بطل الرواية، الباحث الألماني في العلوم الإنسانية– على دعوة للسفر إلى وادي السليكون للمشاركة في مسابقة علمية. يحصل صاحب أفضل إجابة –في هذه الحالة إجابة متفائلة– عن سؤال المسابقة على مبلغ مليون دولار. جاء سؤال المسابقة كالآتي 'لماذا كل شيء على ما يُرام، وعلى الرغم من هذا يمكن جعله أفضل؟'. هذا السؤال في الأساس ليس سوى صياغة حديثة لسؤال 'الثيوديسيا' القديم: لماذا يسمح الإله بوجود الشر في العالم، على الرغم من أن قدرته ورحمته وسعتا كل شيء؟ هذا السؤال الديني الفلسفي القديم كان دائمًا يتعلق بالتفاؤل والتشاؤم.

> رواية يسافر بطلها الباحث المتشائم، والساخر، والمنهك، القادم من أوروبا «القارة العجوز» إلى «وادي السليكون»

وقد قام الفيلسوف الألماني لايبنتس في بداية القرن الثامن عشر بصياغة إجابته الشهيرة عن سؤال 'الثيوديسيا'. جاءت إجابته كالآتي 'إن صفة الكمال لا يمكن أن تنطبق سوى على الإله وحده'. وبالتالي فإن العالم الذي نعيش فيه هو أفضل العوالم الممكنة على الرغم من وجود الشر".

وأشار إلى أنه "في عام 1755، حدث زلزال مدمر في مدينة 'لشبونة' وراح ضحيته عشرات، بل مئات الآلاف من البشر. انتشر خبر هذه الكارثة سريعًا في أوروبا وزعزع التفاؤل السائد آنذاك. كيف يمكن أن يكون عالمنا أفضل العوالم الممكنة ويلقى مئات الآلاف حتفهم دون أي ذنب؟ كرد فعل على تلك الكارثة، كتب الفرنسي 'فولتير' رواية 'كانديد' التي جاءت في شكل نقد متشائم وساخر لتفاؤل 'لايبنتس'. هذا الصراع نفسه بين التفاؤل والتشاؤم يظهر من جديد في روايتي 'كرافت'".

ولفت الكاتب إلى أن الرواية أيضا تصحب القارئ "في رحلة إلى ألمانيا التي قسمها 'سور برلين' إلى دولتين في فترة الثمانينات. حيث نلتقي هناك بـ'كرافت' في مرحلة الشباب. كان 'كرافت' يدرس آنذاك في برلين الغربية ويكرِّس اهتمامه للسياسة الاقتصادية الليبرالية للرئيس الأمريكي 'رونالد ريجان' ورئيسة وزراء بريطانيا 'مارجريت تاتشر'. راقب 'كرافت' بحماس فكرة الدولة ذات المؤسسات القوية التي ينبغي أن تضمن تحقيق العدالة الاجتماعية. وهي تُستبدل بفكرة ترك تشكيل المجتمع لقوى السوق الحر والقطاع الخاص. هذا الصراع الأيديولوجي الذي يصطدم به مجددًا بعد ثلاثين عامًا في 'وادي السليكون' ".

وختم لوش "أصبح 'كرافت' شاهدًا على سقوط 'سور برلين' عام 1989 وإعادة توحيد ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية وانهيار الاتحاد السوفيتي الشيوعي وإعلان الغرب الرأسمالي انتصاره الساحق على التاريخ. لكن كان على 'كرافت' أن يعرف أن الأمر ليس بهذه البساطة".

رحلة ساخرة في زمن المال (لوحة للفنان بسيم الريس)

المرأة الكاتبة بين الحضور والتخفي

حسن الوزاني
كاتب مغربي

تكشف آخر دراسة قامت بها الصحيفة البريطانية العريقة الغارديان، قبل شهر، عن استمرار الحضور الباهت للمرأة على مستوى كِتاب الطفل، حيث ما زال الذكور يَستحوذون على الكُتب المصورة.

وتلتقي هذه النتائج مع معطيات التقرير السنوي الخاص بالتعدد في هوليوود، الذي تنجزه جامعة كاليفورنيا، والذي يؤكد بدوره الحضور الباهت للمرأة على مستوى الإنتاج السينمائي الأميركي.

وإذا كانت هذه الحصيلة غير المشرفة لمكانة المرأة تُسجَّل داخل بلدان يُعرف عنها انتصارها للمرأة ولحقوقها، وعرفت نضالات نسائية خلال عقود بحثا عن مكان أفضل للمرأة، فلنا أن نتصور الوضعية داخل فضاءات أخرى، حيث ما زالت المرأة تكافح من أجل حقوقها البسيطة. أن تكتب مثلا بدون أن يبحث بعض القراء من ذوي النية السيئة عن حضور الجنس داخل نصوصها، وأن تمر في الشارع بحرية بدون أن تتعرض للتحرش.

ولعل إقصاء المرأة، أو تناسيها، سواء على مستوى التاريخ الأدبي أو على مستوى الحقوق العادية ليس أمرا جديدا. ولذلك سيحرص، على سبيل، عالم مغربي، وهو عبدالله كنون، في كتابه الشهير "النبوغ المغربي"، على التقاط أسماء الأدييات والمفكرات اللواتي طبعن، خلال قرون، تاريخ الأدب والفكر بالمغرب، واللواتي جرت العادة أن يسكت عنهن تاريخ الحركية الثقافية بالمغرب، وإن كان عبدالله كنون اختار الوقوف، بشكل سريع وعابر، عند الأسماء النسائية في آخر الفصول.

وفي جميع الأحوال، سنقف مع عبدالله كنون وبعض المصادر الأخرى عند عدد من التجارب النسائية الثقافية، وعلى رأسها الشاعرة رميلة. ولعلها الأولى التي كانت تكتب قصائدها باللغة العامية المغربية. وإذا كان تاريخ الأدب الآن لا يحتفظ بقصيدة لها، فإن الشاعرة ما زالت تحضر عبر قصيدة شاعر آخر اسمه ابن غزالة. وكان قد سقط في حبها، وكتب قصيدته "العروس"، في التغزل بها، باللغة العامية أيضا. وسينتهي الرجل مقتولا، بسبب قصيدته الجريئة، التي يصف فيها نفسه بالصياد الذي استطاع اقتناص طريدته. والتي لم تكن في نهاية المطاف إلا أخت الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي، الذي عُرف بصرامته الدينية.

لن تكون الشاعرة رميلة هي الأخيرة، وإن لم يسجل التاريخ الأدبي المغربي تجربة حب انتحارية أخرى بنفس قوة ما حدث لابن غزالة. سيعرف العهد اللاحق، وهو مرحلة دولة المرينيين، بروز أسماء نسائية أخرى، من بينها الشاعرة أم الحسن بنت أحمد الطنجالي، وقد كانت، كما يُعرفها ابن الخطيب، تجمع بين الكتابة الشعرية والمعرفة الطبية، متقاسمة المجال الأخير مع اسم آخر وهو عائشة بنت الجبار.

وإذا كان يحسب لعبدالله كنون وقوفه عند بعض الأسماء النسائية، وإن كان ذلك بشكل عابر، فقد اختار كل من محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي السكوت في كتابهما المشترك "الأدب المغربي"، الصادر في بداية ستينات القرن الماضي، الصمتَ عن إسهامات المرأة في مسارات تكون وتطور الأدب المغربي، مكتفيين بذكر اسم امرأة واحد، وهي فاطمة أم البنين، والتي كانت وراء تأسيس جامع القرويين بمدينة فاس المغربية. والحقيقة أن ذلك لا يبدو اكتشافا، فأصغر طفل في مدينة فاس، أو في غيرها من المدن والقرى المغربية، يحفظ هذا الاسم عن ظهر قلب.

ولا يبدو أمر التناسي عاما، إذ نجد من المدهش أن يُقر عالم مغربي كبير، وهو عبدالرحمن بن زيدان، وهو الذي كان مؤرخا رسميا للدولة العلوية، بأنَّ من بين من أجازوه، عالمة من المدينة المنورة، وهي أمة الله بنت الشيخ عبدالغني. وهي نفسها التي أخذ عنها أيضا عالم مغربي كبير آخر، وهو عبدالحي الكتاني، حيث يشير في مقيدته، التي دون فيها لرحلته الحجازية، إلى أنه لم يجد في الرواية، في الحرمين، إلا الراوين عن، باستثناء امرأة ورجل. فأما المرأة فهي نفسها التي أجازت ابن زيدان، وأما الرجل فهو بهاء الدين الأفغاني.

خلال الشهر الجاري، أثير نقاش على صفحات الويب، وهذه المرة داخل المغرب، وهو يهم غياب الأصوات النسائية على مستوى مجلة الثقافة المغربية، الصادرة عن مؤسسة رسمية وهي وزارة الثقافة المغربية. وكان المُبادر بإثارة النقاش مصحا، كما كان رد إدارة المجلة محقا، بتأكيد أن المواد الثلاث المنشورة في المجلة هي ما تم التوصل به.

> هناك غياب للمرأة الكاتبة، ثم إن مفهوم «الكتابة النسائية» صار أشبه بسجن ترفض الكاتبات الحقيقيات دخوله

وكنت شخصيا قد عشت الأمر حينما كنت أتولى مسؤولية مديرية الكتاب، حيث كان يهمني، بشكل خاص، أن تكون ضمن لجان جائزة المغرب للكتاب نساء باحثات. وكلما اكتشفت اسما جديدا، كنت أطمئن على مصداقية عمل اللجان. وقد يكون ذلك بسبب صورة صرامة المرأة كما قد نتخيلها، بدون أن يمس ذلك بمصداقية الرجال.

أما فيما يخص التصنيفات، فهي، في جميع الأحوال، لا مكان لها في حالة الكتابة. إذ صار مفهوم "الكتابة النسائية" أشبه بسجن كبير، ترفض الكاتبات الحقيقيات دخوله. ولعل ذلك ما يفسر، بالإضافة إلى أسباب أخرى، جانبا من أسباب لجوء عدد من الكاتبات إلى التوقيع بأسماء مستعارة، بما فيها الأسماء الرجالية. فجورج إليوت ليس في الحقيقة إلا الروائية ماري آن، وهي التي اختارت التخفي وراء اسم رجل، لكي تستطيع أن تعيش حياة هادئة، بعيدا عن الأضواء، أما الكاتبة ذات الأصول الروسية، إلزا تريولي فستختار اسما رجاليا هو لورون دانييل لتوقيع روايتها الوحيدة "عشاق أفينينو"، وقد أصدرتها في فترة دخولها للعمل السري، في إطار المقاومة الفرنسية. وإن كان صديقها الشاعر الشهير أراغون قد فضح الأمر، حين وضع اسمها الحقيقي في عنوان ديوانه الشهير "عيون إلزا".

أما الأمر المفارق، فهو أنه يندر أن يتخلى كاتب عربي أو كاتبة عربية عن اسمه أو عن اسمها، حتى في أقسى الظروف. ولعل ذلك من باب عدم التخلي عن أمجاد في الأفق. وحده الروائي محمد مولسهول فعلها حينما اختار التوقيع باسم زوجته ياسمينة خضرا. وإن كان قد فَضَح السر فيما بعد!

كاتبات فضلن التنكر (لوحة للفنان محمد خياطة)